الفصل الخامس

مقدّمة في الحِوار العربي الإسلامي - الروسي

الفصل الخامس

مقدّمة في الحِوار العربي الإسلامي –الروسي

للعالم العربي الإسلامي مكانته الدّولية الهامة، وكذلك الأمر لروسيا الاتحادية، والعلاقات الثقافية بينهما كانت متواصلة وما زالت، من خلال وجود عشرات القوميات المسلمة في روسيا، فضلاً عن مجاورتها لعدة بلدان إسلامية، ونظراً لهذا التماس الثقافي في الجغرافيا والحضاري بين الحضارتين العربية الإسلامية والروسية، فقد أعلنتْ روسيا في شهر آب سنة 2003 انضمامها للمؤتمر الإسلامي بصفة مراقب كخطوة أولى ولاقت هذه الخطوة استحساناً من الدول العربية والإسلامية، وفي مقدمتها المملكة العربية السعودية وماليزيا.

وإذا أخذنا بالحسبان الانتماء الجغرافي لأجزاء من روسيا إلى القارة الآسيوية لاستطعنا أن نصل إلى نتيجة مؤداها أن الحوار بين العرب والمسلمين هو حوار بعض الشرق مع بعضه الآخر. ويؤيد هذه النظرة العديد من المستشرقين والمفكرين الروس، ومنهم الفيلسوف الروسي الشهير " بردييف " الذي يقول:" ليس الشعب الروسي شعباً أوربياً محضاً، ولا هو شعبٌ آسيويٌ محضٌ. روسيا هي جزء كامل من العالم، وهي لقاء الشرق والغرب"(1).

إن روسيا بموقعها عند ملتقى الحضارات العالمية في القارة الأوراسية (الامتداد الجغرافي والتواصل بين قارتي أوربا وآسيا) " أدّت تاريخياً رسالة جيوسياسية تاريخية فريدة لدعم التوازن الكوني بين العالمين

المسيحي واللا مسيحي، وذلك باعتبارها مكاناً متميزاً بين أوربا وآسيا "(2).

.....

لمحة عن تاريخ العلاقات بين روسيا والعالم العربي والإسلامي

تعود العلاقات بين روسيا والعالم الإسلامي إلى القرن التاسع، حيث " شكلت القدس محط أنظار الحجاج الروس منذ العالم 1106 عندما قام الراهب دانيال بأول حجة إلى الأراضي المقدسة"(3).

وكان هؤلاء الحجاج يعودون إلى ديارهم حاملين معهم انطباعاتهم، فتجذرت صورة القدس في الوعي الروسي. ولعلَّ الأواني الخزفية والنقود المنقوشة التي عُثر عليها في مدينتي موسكو وريزان ومصدرها

مصر وسوريا تشكل دليلاً مادياً على العلاقات الروسية الإسلامية في تلك الفترة. من جهة أخرى، وعلى الرغم من تاريخ النزاعات الدبلوماسية والعسكرية بين روسيا والسلطنة العثمانية منذ القرن الرابع عشر، فإن ثمة علاقة نشأت بين حضارة كل من الدولتين. يقول البروفيسور " رينات سلطانوف " الباحث في شؤون العلاقات الروسية الشرقية:" يكفي المرء أن يلقي نظرة على لباس القياصرة وقبعاتهم وتيجانهم ليرى الأثر البالغ للتقاليد الشرقية" (4).

ولا يمكن للباحث في تاريخ العلاقات بين روسيا والعالم الإسلامي أن يغفل دور الإرساليات الدينية والتعليمية الروسية إلى بلاد الشام منذ العالم 1885، حيث انتشرت المدارس الروسية التي اعتمدت اللغة العربية في مدن طرابلس، بيروت،

دمشق، حمص، الناصرة، فضلاً عن قرى أميون، الحاكور، رحبة، بيت غالا، مشغرة.

" لقد كانت هذه المدارس مجانية تعطي الملابس والكتب للتلامذة وتؤمّن لهم التطبيب المجاني، وكانت تعتمد أساليب تربوية حديثة"(5).

كما نشطت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر حركة الاستشراق الروسي وفي مطلع القرن العشرين، حيث ترجمت الكثير من الكتب العربية إلى اللغة الروسية، ومنها كتاب " ألف ليلة وليلة " وكتاب " الأيام " لطه حسين.

وهكذا لم تشهد العلاقات الروسية _ العربية حالات صدامية كبرى كما شهدتها العلاقات العربية _الغربية.

ومن الطبيعي بمكان أن تنبثق العلاقات الثقافية العربية _ الروسية من رحم العلاقات التاريخية وفق تجليات المثاقفة والتعاون الحضاري.

لقد عقد في مطلع الألفية الجديدة في لبنان وبدعم من اليونسكو مؤتمر للحوار انطلاقاً من تجربة روسيا والمشرق العربي لإقرار عناصر الالتقاء بين الثقافات وليس العكس. " إنَّ العالم العربي هو النواة الروحية للعالم الإسلامي. والمشرق العربي يتمتع ضمن هذا العالم بمكانة نادرة لا مثيل لها. وروسيا دولة غالبية سكانها يدينون بالمسيحية الأرثوذكسية، ولكن روسيا أوروبية وآسيوية في الوقت نفسه" (6). لقد شهدت الساحة الثقافية في المشرق العربي تبلور تيار عريض من خريجي المعاهد والجامعات الروسية التي اهتمت بترجمة عدد من الوثائق الروسية المهمة الخاصة بالمشرق العربي إلى اللغة العربية. كما إن

بعض المراكز العلمية، والجامعات، ودور النشر كانت تشجع الباحثين العرب على ترجمة الوثائق الروسية الخاصة بالمشرق العربي نتيجة لذلك.

ودلَّتْ دراسة " مكارم العمري " الموسوعية " مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي " على وجود اهتمام جدي لدى عدد كبير من كبار الشُّعراء والفنانين الروس بالتراث العربي الإسلامي.

وفي عام 2000 نشر الباحث السوري " مالك صقور " دراسة متميزة بعنوان " بوشكين والقرآن " تضمَّنت مقارنة بين الأدب العربي والأدب الروسي، وترجمت إلى العربية عشرات الوثائق والكتب من أرشيف روسيا القيصرية عن تاريخ العرب الحديث والمعاصر. كما ترجمت روائع من الأدب والشعر والرواية والمسرح الروسي.

.....

الاستشراق الروسي والمشرق العربي :

تبلور الاستشراق الروسي في القرن التاسع عشر عبر مجموعة كبيرة من الباحثين، والمؤرخين، والشعراء، وكّتاب الرحلات إلى الأراضي المقدسة. يضاف إلى ذلك أن تجارة روسيا مع مصر وبلاد الشام وأرجاء واسعة من السلطنة العثمانية كانت متطورة، ولاسيما مع القدس، ودمشق، وحلب، وأزمير، والآستانة وغيرها. وتوسّع اهتمام الروس كثيراً بدراسة اللغة العربية في عدد من الجمعيات والمراكز العلمية الروسية.

" وبدأ اهتمام الروس بالتراث العربي الإسلامي يتزايد بشكل ملحوظ بعد ترجمة عدد من المصادر الأساسية في هذا المجال إلى اللغة الروسية. وما لبث الاهتمام الثقافي الفردي أن تحول إلى علم استشراق متميز. يسعى الباحثون فيه إلى معرفة أحوال

الشرق عن طريق نشر حب الاستطلاع، والقيام بزيارات مباشرة إلى المشرق العربي لتدوين مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والإدارية والاقتصادية والثقافية والفنية فيه. وكذلك أرسلت بعثات علمية من المستشرقين الروسيين الشباب للاطلاع على شؤون منطقة المشرق العربي، والتدريب على الكلام باللغة العربية بهدف الترجمة منها إلى الروسية"(7).

لقد كرَّس بعض كبار المستشرقين الروس جلّ أوقاتهم لتعلّم اللغة الشرقية، وتدريب المستشرقين الشباب عليها، وحثّهم على تعلمها، والترجمة، وإلقاء المحاضرات، ونشر المقالات والكتب، وإقامة الصِّلات مع مراكز ثقافية ومثقفين مشرقيين، والعمل على شراء المخطوطات الثمينة أو نسخها.

لقد تميزت كتابات المستشرقين الروس عن متصرفية لبنان والمشرق العربي بالدقة والتأثر بسحر الشرق والحرص على إظهار الحقائق بموضوعية، كما دلت دراستا القنصل " بيتكوفيتش "

" لبنان واللبنانيون "، و " حوران والحورانيون ". من أهم المستشرقين الروس الذين أغنوا الدراسات المشرقية في الاستشراق الروسي سينكوفسكي ، ورافالوفيتش، ولفوف، وبازيلي، وسواهم.

.....

مقّدمة في الحوار العربي ــ الروسي

انطلاقاً من العلاقات التاريخية والثقافية القديمة بين الحضارتين العربية والروسية يمكننا أن نستنتج أنَّ شروط الحوار الثقافي والحضاري متوافرة بين

الطرفين. فالاحترام المتبادل موجود والعلاقات كانت إيجابية، وتم خلق حوار مشترك عبر امتلاك لغة الآخر عن طريق الترجمة. وساهمت الهوية المشرقية لروسيا في ترسيخ أسس الحوار بين الطرفين، حيث أكّد بعض الدارسين على أنَّ روسيا في كينونتها التاريخية الثقافية مشرقية لأنها تستمد الكثير من مقوماتها من التقاليد الشرقية الإسلامية، وكذلك يشكل حضور الكنيسة الأرثوذكسية الأنطاكية جسر تواصل جامع بين روسيا والعالم العربي.

وإذا أضفنا إلى ذلك العلاقات التاريخية والثقافية المشار إليها آنفاً، يتضح أنَّ أسس الحوار بين روسيا والشرق العربي متينة وأنَّ شروطه متوفرة، ولذلك ينبغي تفعليه كضرورة ملحة ونحن في العقد الثاني من الألفية الثالثة، ولاسيما مع تزايد العلاقات

الاقتصادية والتجارية بين الطرفين، وعقد اتفاقات عديدة بين الكثير من الدول العربية والإسلامية وروسيا الاتحادية كما حدث في عام 2017 من توقيع اتفاقيات اقتصادية عديدة مع حكومة المملكة العربية السعودية.

.....

الحوار المعرفي العربي –الروسي:

الحوار المعرفي الذي يوظف المعرفة والمعلومة في الحوار بهدف إغناء الذات بالآخر هو جانب هام من جوانب الحوار العربي الروسي. ويعتبر الفارابي عاملاً ثقافياً مشتركاً بين العرب والمسلمين والروس، حيث كان قد وضع التحاور المعرفي في مجال التسالم، حيث يود التعارف أو التفاكر، وقابله بالتغالب، حيث يحل التناكر، إنكار الآخر، تمهيداً لإلغائه كذات لتحويله إلى غرض موضوع. "

وفي خطى الفارابي، هذا الفيلسوف الكبير جرى التفريق في الفلسفة العربية بين الفاعل (الذات: بمعنى الأنا)، والقابل (بمعنى الآخر). وفوق ذلك أدرك العرب في مرحلة أنسنة ثقافتهم الإسلامية، مغزى المعاملة بالمعروف، في حالتي اللقاء والافتراق، فميّزوا الأنتَ في الآخر الصديق أو الحبيب، من الأنتَ المعادي أو القاتل. واعتقدوا أنَّ الناس اثنان، أخوك في الدّين وأخوك في الخَلق، طبعاً هنالك مسلمون في روسيا إلى جانب الأرثوذكس، وهنالك أرثوذكس في المشرق العربي، وهذا والمجال الإنسي وتجلياته الثقافية والأدبية والعلمية"(8). لقد أصبح الأدب الروسي، ومنه الرواية الروسية من مرجعيات الثقافة العربية المعاصرة، ولاسيما وأن أهم أعلامه الكبار كـ " تولستوي " و " بوشكين " وسواهم أبدو اعجابا

كبيراً بالحضارة العربية الإسلامية، واحتراماً عظيماً للدين الإسلامي والقرآن الكريم والنّبي محمد

(صلى الله عليه وسلم) بل وكتبوا الكثير من الكتب والدراسات المنصفة في هذا المجال. ويخطئ من يحصر الحوار العربي ـ الروسي في النطاق الأيديولوجي والتكنولوجي أو السياسي والاقتصادي على أهمية هذا النطاق الذي يُكرس المصالح المشتركة. فوراء المصالح كانت تنمو ولو على نحوٍ بطيءٍ ـ معارف تؤثر في شراكات ثقافية عميقة ستدوم أكثر من لعبة المصالح الآنية ولكن من الخطأ فصل مصالح الشعوب عن معانيها. فالمصلحة بذاتها معرفة متجسدة، والمعرفة هي بدورها مصلحة فكرية عقلية، تجسّد ما يراه الطرفان صالحاً لكل منهما. وهكذا يسعى الحوار

العربي إلى تأصيل مفهوم إنسانية العلاقات العربية ـ الروسية.

.....

العرب والمسلمين في الأدب الروسي

بخلاف الصّورة النّمطية السَّلبية للعرب والمسلمين في الآداب الغربية، كانت هذه الصورة مشرقة في كتابات الأدباء الروس على نحوٍ مدهشٍ، مثلما كانت أيضاً في كتابات المستشرقين والرحالة الفلاسفة. ويعتبر " بوشكين " أهم شاعر روسي أعجب بالإسلام كدين سماوي وبالقرآن الكريم ككتاب سماوي منزَّل في العديد من قصائده، حيث نفذَ إلى روح القرآن وجماله وقيمه. وقد قال الروائي الروسي الكبير" ديسيتوفسكي " في خطابه الشهير في ذكرى بوشكين " :" ألسنا نرى هنا مسلماً، ألا نرى روح القرآن ذاته، بساطة الإيمان وقوته

الخارقة". لقد استلهم " بوشكين " في قصائده فروسية الأبطال المسلمين وشجاعتهم وأخلاقهم. ويظهر تأثر الروائي الروسي الكبير " تولستوي " بالثقافة الإسلامية في كتابه " الشهير " كتابات من القرم " حيث يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى مبتهلاً بالدعاء ومثقلاً بالأعياء بشعر يقترب كثيراً من الروح الإسلامية. وكتب الشاعر الروسي " بولو نسكي " عدة قصائد تجسد موضوعات إسلامية، منها قصيدة بعنوان " مُحمَّد " وسلسلته الشعرية الشهيرة " أغنية تترية"، و"كرنفال "، و " من حافظ ".

وفي نهاية القرن التاسع عشر ازداد حضور العرب والإسلام والشرق في الأدب الروسي، ميخابيلوف: ترجمات شعرية، للقرآن، جلال الدين الرومي، سعدي وغيرهم. وكتاب بوختين " تقليد العربية"،

وكتاب مايكوف " صلاة بدوي "، و"
لوخفيسكايا" في رائعته " على طريق الشرق "، "
فهم القرآن " عند الشاعر " بلمونت " و أظهر "
غوغول " في كتاباته إعجابه بالحضارة العربية
الإسلامية. وأظهر " ليف تولستوي " اهتماماً
روحياً شاعرياً نحو الشرق، لقد عرف القرآن الكريم
وأجلّه، وحياة العرب، وشعوب إسلامية اخرى.

.....

أفكار من أجل حوار أفضل:

رغم أنَّ معظم أسس الحوار بين روسيا والشرق
العربي متوافرة، إلاَّ أنّ الواجب تفعيل هذا الحوار
بما يسهم في انفتاح الشعوب على بعضها وتعارفها
وتشجيع التواصل بينها بما يوفر سهولة انتقال
المعلومات في عصر تقدم تقنيات التواصل الحديثة،
وتعزيز أواصر التفاهم والتعاون بما يؤدي لصنع

السلام العالمي انطلاقاً من الإرث الحضاري القائم على الإيمان بالقيم الإنسانية والمثل العليا من احترام خصوصية كل طرف الروحية والفكرية والدينية واحترام الحق بالاختلاف وإحقاق الحق ونبذ التطرف والعدوان.

ولكي يتعمّق الحوار بين روسيا والشرق العربي يؤكد الباحثان الدكتور سهيل فرح والدكتور أليغ كولوبوف على ضرورة الأخذ بالأفكار العلمية التالية:

1_ تنشيط حركة الترجمة من الروسية إلى العربية وبالعكس من العربية إلى الروسية.

2_ توثيق الصلة بين الجامعات ومراكز الأبحاث العربية والروسية، وإنشاء مراكز أبحاث مشتركة.

3_ تأسيس مؤسسات حوارية ومؤسسات تعاون مشترك ودعمها وتشجيعها.

4_ تبادل زيارات مجموعة الشباب بين روسيا والعالم العربي عن طريق إقامة المخيمات الثقافية والسياحية.

5_ تنظيم معارض سنوية للفنون الروسية في العالم العربي، وللفنون العربية في روسيا.

6_ إرساء تعاون بين فرق الموسيقى والفنون الشعبية الروسية والعربية.

7_ تنشيط حركة التبادل الثقافي والسياحة (9).

وهكذا يساعد الحوار على التعريف وعلى نطاق واسع بكلتا الحضارتين، ويحقق التفاعل الحقيقي بينهما من أجل مستقبل إنساني أفضل يتحقق فيه التعاون بدل التنابذ، والتعاون بدل التصادم،

والتحاور بدل الانغلاق، والتسامح بدل التعصب.

أليس الحوار سمة العقل المستنير، والعقل سمة الإنسان خصَّه الله به وحده دون مخلوقاته الأخرى على سطح كوكب الأرض!

****

الهوامش والمراجع:

1_ برديف. ن.أ، الفكرة الروسية، موسكو 1990، ص 443.

2_ الدكتور سهيل فرح/ الدكتور أليغ كولوبوف، حوار الحضارات، دار علاء الدين، دمشق 2008، ص204.

3_ بارتولد.ف، ثقافة الإسلام، موسكو 1992، ص 123.

4_ أ.ف. نازارنكو، روسيا والأرضي المقدسة في عصر الحملات الصليبية، انظر أعمال مؤتمر روسيا والشرق، منشورات جامعة البلمند 1998، ص 23.

5_ يوسف أسعد داغر، صفحة مجهولة من تاريخ التعليم في سوريا ولبنان وفلسطين، انظر المدرسة المسكوبية، مكتبة السائح، طرابلس، ص 5_4.

6_ الدكتور سهيل فرح / الدكتور أليغ كولوبوف، مرجع سابق، ص 321.

7_ المرجع السابق، ص 330.

8_ المرجع السابق نفسه، ص 342.

9_ نفسه، ص 214.

****